التضامن الإسلامي

إن هذه أمتكم أمة واحدة

مجلة الحج سابقا

مجلة إسلامية شهرية تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة

السنة السادسة والأربعون ـ الجزء الثامن ـ صفر ١٤١٢هـ ـ أغسطس ١٩٩١م

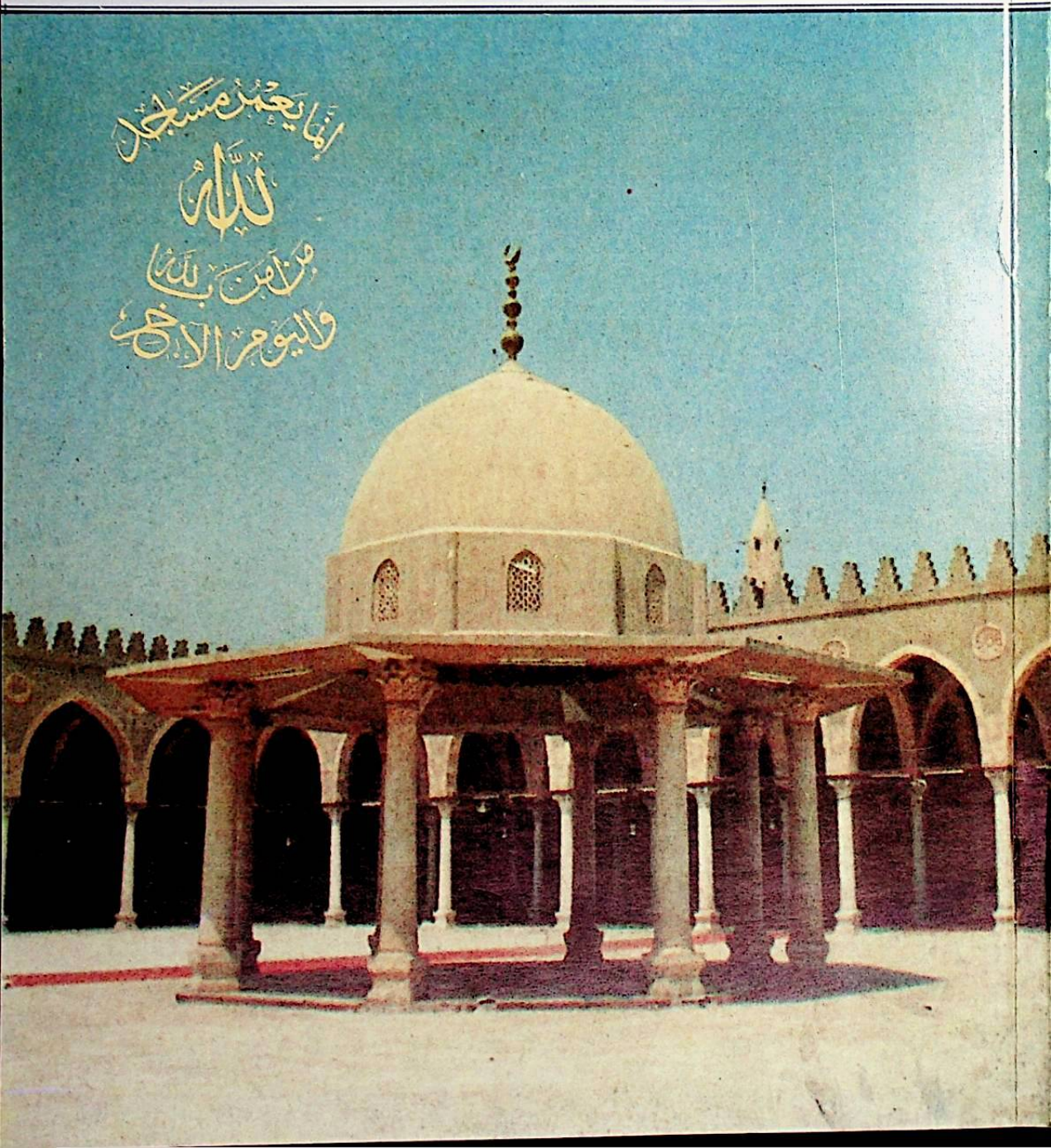

رحلة ابن وهب القرشي إلى بلاد الصين

بقلم
د. يوسف بن أحمد حوالة

عرف العرب بلاد الصين منذ أمد بعيد قبل الإسلام ، وكانوا كثيراً ما يعتبرونها آخر الدنيا ، وآخر العمار ، ولقد ظل هذا المفهوم سائداً حتى ظهور الإسلام ، وليس إلى الشك سبيل أن هذه المعرفة إنما جاءت نتيجة إطلالة بلاد العرب على معابر مائية كبيرة هي : البحر الأحمر ، والخليج العربي ، وبحر العرب . ولما كانت التجارة من الحرف التي اشتغل بها أهل حواضر الجزيرة العربية ، فقد كان طبيعياً أن تتجه أنظارهم إلى سواحل بلادهم ولا سيما أهل اليمن ، التي تحملهم إلى البحار المحيطة بمعابرهم ، أي البحار الجنوبية التي تفضي بهم إلى شواطىء إفريقيا الشرقية ، وبلاد الهند ، والصين . وهكذا عرفت حركة الملاحة البحرية رحلات تجارية ذاهبة آيبة نحو هذه البلدان .

وعندما جاء الإسلام ، وقامت دوله المتعددة ، التي اتسعت رقعتها واستبحر عمرانها شهدت نهضة ـــ ولا سيما في عهد الدولة العباسية ـــ اقتصادية . كان من بين أهدافها الإتجار مع بلدان الشرق الأقصى ـــ وبلاد إفريقيا

الشرقية ــ ، وهكذا تعددت رحلات الرحالة العرب والمسلمين البحرية ــ والبرية كذلك ــ وازداد زخمها في القرن الثالث الهجري .

والرحلة التي نتحدث عنها الساعة تدخل في نطاق الرحلات البحرية التجارية ، وصاحبها يدعى : ابن وهب القرشي الذي كان حيًا سنة ٢٥٦ هـ وفي الحق فإن معلوماتنا عن ابن وهب ضئيلة ، وليس في ترجمته الموجودة بين أيدينا ما يروي ظمأً أو يشفي غلةً . فكل ما أمدتنا به المصادر والمراجع التي تعرضت لذكر رحلته قولها إنه يدعى ابن وهب القرشي فحسب ، وزاد بعضها فذكر أنه من ولد هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزي من قريش .

وأول إشارة لابن وهب القرشي ، ومن ثم رحلته إلى بلاد الصين ، وردت في كتاب رجل يدعى أبا زيد : الحسن بن يزيد السيرافي ، الذي صنف كتاباً ، جمع فيه أخبار بعض من الرحالة والربابنة العرب والمسلمين الذين ركبوا متني المحيطين الهندي والهادي ، وهو الكتاب الذي عرف بسلسلة التواريخ ، أو رحلة سليمان التاجر السيرافي .

ثم جاء أبو الحسن : علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ ، فأفرد في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » أخبار رحلة ابن وهب إلى بلاد الصين ، اعتماداً على معلومات حصل عليها من مصادره ، ثم أضاف إليها ما حصل عليه من بقية أخبار الرحلة من أبي زيد السيرافي مصنف كتاب : سلسلة التواريخ ، الذي قابله في البصرة سنة : ٣٠٣ هـ .

الظـروف التي تمت فيها رحلته

كان ابن وهب القرشي هذا وجيهاً من وجهاء مدينة البصرة ، ومن ذووي اليسار فيها ، بيد أنه فقد ثروته على إثر نشوب فتنة الزنج التي عصفت بالبصرة والعراق بعامة ، عام ٢٥٥ هـ . وهي الفتنة التي هددت كيان الدولة العباسية ، حتى قضي عليها أخيراً سنة ٢٧٠ هـ أي إبان خلافة المعتمد (٢٥٦ ــ ٢٧٩ هـ)[1] .

لم يَرُغْ ابن وهب القرشي إلا وقد نهبت ثروته وذهبت فيمن ذهبت أموالهم من أهل البصرة ، نتيجة لهذه الفتنة العارمة ، ولم يكن أمامه سوى التفكير في تعويض ما فقده ، فكان أن قرر الخروج من مدينته البصرة راكباً ثبج البحر متجهاً نحو مدينة خانفوا أو خانقو[٢] ـــ كانتون الآن ـــ بالصين ، فاجتاز بلاد الهند ، ثم وصل أخيراً إلى الصين ، فقابل ملكها بعد أحداث وخطوب ومواقف ـــ سنوردها بعد قليل ـــ فأغدق عليه هذا الملك من العطايا ما أسعده ، ثم عاد إلى بلده ثانية فروى أخبار رحلته وما صادفه فيها ، وما رآه في بلاد الصين .

المسعودي يروي طرفاً من رحلة ابن وهب وكيفية وصوله إلى الصين

(... ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلًا من قريش من ولد هبار ابن الأسود لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر ، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف ، وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها وذوي الأحوال الحسنة ، ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند . ولم يزل يتحول من مركب إلى مركب ، ومن بلد إلى بلد ، يخترق ممالك الهند إلى أن انتهى إلى بلاد الصين فصار إلى مدينة خانقوا ، ثم دعته همته إلى أن صار إلى دار ملك الصين ، وكان الملك يؤمئذ بمدينة حمدان وهي من كبار مدنهم ، ومن عظيم أمصارهم ، فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ، ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب ، فأمر الملك بعد هذه المدة الطويلة بإنزاله في بعض المساكن وإزاحة العِلَّة من أموره ، وجميع ما يحتاج إليه ، وكتب إلى الملك المقيم بخانقوا يأمره بالبحث عنه ، ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب ﷺ ، فكتب صاحب خانقوا بصحة نسبة ، فأذن له في الوصول إليه ، ووصله بمال واسع ، وأعاده إلى العراق ، وكان شيخاً فهما .. الخ) .

أوصاف طريفة لأمم الأرض في مجلس ملك الصين

وبعد أن أخبرنا المسعودي عما حدث لابن وهب منذ خرج من مدينته البصرة وحتى وصوله إلى مدينة حمدان ، ومثوله في بلاط الملك ، أورد خبراً طريفاً

عن مجلس جرى بين الملك وابن وهب ، كان منصباً حول ذكر أوصاف ممالك الأرض آنذاك . بدأ المجلس بأن (سأل الملك ابن وهب عن قومه العرب ، وكيف أزالوا ملك العجم ، فقال له : بالله عز وجل وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل ، فقال له : لقد غلبت العرب على أجلّ الممالك ، وأنفسها وأوسعها ريعاً ، وأكثرها أموالاً ، وأعقلها رجالًا ، وأهداها صوتاً[٣] . ثم قال له : فما منزلة سائر الملوك عندكم ؟ قال : مالي بهم علم ، فقال للترجمان : قل له : إنا نعد الملوك خمسة ، فأوسعهم ملكاً الذي يملك العراق ، لأنه في وسط الدنيا ، والملوك محدقة به ، ونجد اسمه ملك الملوك ، وبعده ملكنا هذا ، ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا ، فنحن ملوك الناس ومن بعده ملك السباع ، وهو ملك الترك الذي يلينا ، وهم سباع الإنس ومن بعده ملك الفيلة ، وهو ملك الهند ، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضاً لأن أصلها منهم ، ومن بعده ملك الروم ، وهو عندنا ملك الرجال ، لأنه ليس في الأرض أتم خلقاً من رجاله ، ولا أحسن وجوهاً منهم ، فهؤلاء أعيان الملوك ، والباقون دونهم) .

محاورة أخيرة يعقبها تضييف وإكرام

ويبدو أن الملك قد استغرب حرص ابن وهب على لقائه والوقوف ببابه ، وهو الذي ينأى عنه نأياً بعيداً ، ومن سأله : (لِمَ عَدَلْتَ عن ملكك هو أقرب إليك داراً ونسباً ؟ قلت : بما حدث على البصرة ، ووقوعي إلى سيراف[٤] ونزعت همتي إلى ملك أيها الملك ، لما بلغني من استقامة مُلكك وحسن سيرتك ، وكثرة جنودك وشمول سياستك لسائر رعيتك فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهداتها ، وأنا راجع عنها إلى بلادي ، وملك ابن عمي ، ومخ[illegible] ما شاهدت من جلالة هذا الملك ، وسعة هذه البلاد ، وعموم هذا العدل [illegible] ك أيها الملك المحمود ، وسأقول بكل قول حسن ، وأثنى بكل [illegible] ، وأمر لي بجائزة سنية ، وخِلَع شريفة وأمر بحملي على البريد [illegible] ،

وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على من في ناحيته من سائر خواص الناس ، وإقامة النُزُل إلى وقت خروجي عنه ، فكنت عنده في أخصب عيش وأنعمه ، إلى أن خرجت من بلاد الصين) .

وصف مدينة حمـدان

وينتقل بنا المسعودي إلى ما استقاه من أبي زيد السيرافي عن وصف ابن وهب لمدينة حمدان عاصمة مملكة الصين آنذاك . لنستمع إليه يقول : (وأخبرني أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي بالبصرة ـــ وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف ، وذلك في سنة ثلاث وثلثمائة ، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد ابن محمد بن حزد بن ساسياد السيرافي ، وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتمييز ـــ أنه سأل ابن هبار هذا القرشي عن مدينة حمدان التي بها الملك وصفتها ، فذكر سعتها ، وكثرة أهلها ، وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض ، فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وخصيانه ، وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه مما يلي المشرق لا يخالطهم أحدٌ من العامة وليس فيه شيء من الأسواق ، بل أنهار في سككهم مطردة وأشجار عليها منتظمة ، ومنازل فسيحة ، وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب الرعية والتجارة والميرة والأسواق ، فإذا وضح النهار ، رأيت فيها قهارمة الملك وغلمان وزرائه ووكلائهم ما بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذي فيه العامة والتجار ، فأخذوا بضائعهم وحوائجهم ، ثم انصرفوا فلا يعود واحد منهم إلى هذا الشق إلا في اليوم الثاني ، وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة ، وأنهار مطردة إلا النخل ، فإنه معدوم عندهم) .

موقع رحلة ابن وهب من البحث العلمي

هذه رحلة ابن وهب القرشي التي سنقف عندها وقفة طويلة بعض الشيء ، في البدء يمكن القول إن رحلة ابن وهب القرشي هذه شأنها شأن رحلتين مبكرتين عنها وهما رحلة : سلام الترجمان ، وسليمان التاجر لم تدون أخبارها في كتاب مستقل قائم بذاته ، ولكنه عندما عاد إلى البصرة التقى بأبي زيد السيرافي الذي أشرنا إلى [illegible] الذي عكف على تدوين رحلة سليمان التاجر وغيره في

كتابه الذي سماه « بسلسلة التواريخ أو رحلة سليمان التاجر » كما ذكرنا آنفاً ، أقول : ضمَّن كتابه ذلك أخبار رحلة ابن وهب القرشي إلى بلاد الصين .

وهذه المادة الموجودة في كتاب أبي زيد السيرافي لا تختلف كثيراً عما ورد بشأنها في كتاب المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، والذي ننقل عنه . وهذا أمر طبيعي لأن أبا زيد كان قد التقى المسعودي في مدينة البصرة ، فحكى له أخبار رحلة ابن وهب . ومما يجدر ذكره هنا أن رحلة سلام الترجمان ، وهو الذي بعثه الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ ــ ٢٣٢ هـ) إلى الصين موفداً من قِبَله إلى ملك الصين لاستطلاع أمر أحوال السد الذي بناه ذو القرنين للحيلولة بين ديار المسلمين ويأجوج ومأجوج ، وكذلك رحلة سليمان التاجر المعروف بالسيرافي والذي قام برحلة تجارية إلى الصين سنة ٢٣٧ هـ ، تُعَدَّان من بواكير رحلات المسلمين إلى بلاد الصين والهند قبلها .

ويثور سؤال هنا وهو : هل يعني هذا أن الرحلة لم تكن محل اعتراض من قبل المؤرخين المحدثين ؟ نستطيع أن نؤكد ذلك فعلاً ، فرحلة ابن وهب لم تلق أي تشكيك في حقيقتها لامن قبل المؤرخين المحدثين ولا من قبل المؤرخين القدامى كذلك . على أنه يجب القول بأنه على الرغم من أن رحلة ابن وهب تُعْتَبَر ــ في الحقيقة ــ رحلة عادية ، وأنها ذات أثر علمي محدود ، إلا أن هذه لا ينسينا أنها تعتبر من أوائل الرحلات إلى الشرق الأقصى ، ومن هنا تأتي قيمتها العلمية ، كما أن ما ذكره ابن وهب عن مدينة خمدان عاصمة الصين آنذاك يحتوي على شيء مفيد من حيث وصفه لطرقها وأقسامها وما تشتمل عليه . وفي هذا الصدد أذكر أن المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشوفسكي صاحب كتاب : تاريخ الأدب الجغرافي المترجم إلى العربية قد أشاد بأهمية وصف ابن وهب لمدينة خمدان : سينانفو الآن في الدراسات الصينية .

وأخيراً حتى لا نبعد عن الإنصاف بشأن قيمة رحلة ابن وهب الأدبية نستطيع القول بأنها لا تخلو من أثر أدبي يتمثل في براعة ابن وهب في عرض موضوع انتظاره على باب الملك ، ثم مادار بينه وبين الملك ، في قالب روائي لا بأس به .

الهوامـــــش ...

(١) فتنة الزنج ، فتنة قادها رجل غريب الأطوار ، ظهر في عصر الخلافة العباسية الثاني ، وهو العصر الذي ضعفت فيه هذه الخلافة ، فظهر هذا الرجل واسمه : علي بن محمد من أهل طالقان بخراسان وادعى أنه من نسل زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وقد نادى بمبادئ الخوارج ـــ على غرابة ذلك فيما يتصل بادعائه النسب العلوي ـــ ولعل من أهم ما نادى به هو أنه مكلف من العناية الإلهية بإنقاذ الفقراء ولا سيما العبيد ، وادعى أيضاً أنه يعلم الغيب وانتحل النبوة . ولاقت دعوته رواجاً بين العبيد الذين تمردوا على مواليهم وانضموا إليه . وزاد شغبه كثيراً ، وأقام له مدينة بالقرب من مدينة البصرة ، سماها : المختارة .

وانتشرت دعوته في العراق والبحرين انتشار النار في الهشيم ، وقد خربت جيوشه العديد من المدن منها : واسط والبصرة . وطالت مفاسدهم حتى انبرى الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد له فخرج نحوه ونحو جيوشه سنة ٢٦٧ هـ ، وظل يوجه له الضربات القاصمة ، ثم حاصر المختارة حصاراً شديداً ، أدى إلى استسلام كبار مساعديه ـــ أي المدعى الغشوم علي بن محمد ـــ ثم سقطت المختارة آخر المطاف بيد الموفق ، وقتل الدعي ، بعد أن خربت البلاد وأزهقت عشرات الألوف من النفوس .

عن هذه الفتنة أنظر ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك منشورات دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، ـــ بيروت ، لبنان ـــ ، ١٣ جزءًا ، الجزء الثالث عشر ، ص ١٧٤ ، وما بعدها . أي حوليات تلك السنوات حتى سنة ٢٧٠ هـ .

(٢) خانقوا أو خانقوا : مدينة كبيرة في الصين ، قال عنها الحميري في كتابه الروض المعطاء : (خانقوا : مدينة عظيمة في الصين على نهر عظيم أكبر من الدجلة أو نحوها يصب إلى بحر الصين ... وبهذه المدينة خلائق من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ، وغيرهم من أهل الصين ، ويرجح الباحثون المحدثون أن خانقوا أو خانقوا ، هي مدينة كانتون الآن) .

أنظر الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، منشورات مكتبة لبنان ، ـــ بيروت ـــ ، ط ٢ ، ٢١٩٧٤ ، ص : ٢١٠ ، وكذلك حاشية رقم (٢) من نفس الصفحة .

(٣) من الغريب أن يرجع محقق كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، منشورات المكتبة التجارية ، القاهرة ط ٤ ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م جزءان ، الأستاذ محمد محي الدين عبدالحميد في الجزء الأول ، ص ١٤٣ ، هذه العبارة ويضمنها المتن ، فيما يشير في الهامش ـــ هامش الصفحة نفسها ـــ أنه وجد في إحدى النسخ التي اعتمدها في التحقيق ، وجد العبارة : وأبعدها صيناً . نقول : من الغريب أن يفوته أن العبارة هذه أوفق للسياق أوفق التعلق من العبارة التي تبناها في المتن .

(٤) وصفها الحميري في الروض المعطار الذي مر ذكره ، ص : ٣٣٣ ، بقوله : سيراف في بلاد فارس ... وهي على ساحل البحر الفارسي (الخليج العربي) بها تجار مباسير .

... وسيراف فرضة فارس ومبانيها من الساج ... وسيراف مرفأ للسفن ومنها يتجهز التجار إلى عدن وعمان وقيل والقلزم وغيرها من النواحي .